نظرية اللغة الموحدة في الميزان

حررت بتأريخ ٢٢/ذ.ق./ ١٤٢١
الموافق ١٦ / ٢/ ٢٠٠١م

نظرية اللغة الموحدة في الميزان[1]

الاستفتاء:

بسم الله الرحمن الرحيم

والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على خير خلقه أجمعين محمد وآله الطيبين الطاهرين، وعجل الله تعالى فرج منقذ البشرية من الضلال

---

(١) في الفترة التي تلت استشهاد السيد الصدر الثاني (قدس سره) عام ١٩٩٩ شهدت الساحة فراغاً في القيادة الدينية فأوجب إحباطاً وتردداً لدى الكثير من القواعد، وكانوا يتشبثون بكل ما يوهمهم أنه البديل، وفي تلك الفترة نشر مفكّر اسمه (عالم سبيط النيلي) عدة كتب فيها أطروحات جديدة استهوت الشباب، وكان أصل هذه الأطروحات نظرية اللغة الموحدة، والحل القصدي للغة، وألقى من خلالها إلى المجتمع فكرة مفادها أن اللغات المتداولة أصلها واحد؛ لأن لكل حرف معنىً ذاتياً يعرف من صوته، ولترتيب هذه الحروف في الكلمات معنى يؤديه هذا الترتيب، فمن فهم ذلك عرف أسرار المعاني واستغنى عن العلماء في كل العلوم لأنه سوف لا يحتاج إلى من يعلمه، وخلص إلى نتيجة عدم الحاجة إلى الفقهاء ومراجع الدين بل إلى المؤسسة الدينية عموماً وأن نظريته هي البديل عنهم جميعاً، ووصف كبار علماء الأمة وأعلامها بالجهل والمكر والخداع، ولاقت أطروحته قبولاً لدى البعض إلى حد الحماس وبدأوا يسقّطون المرجعية والحوزة الدينية ويدعون إلى نبذها.

وقد كان لهذا الرد العلمي الرصين وبيان الوهم في هذه الأطروحات الأثر الكبير في تراجع الاقتناع بها والإعراض عنها وعن صاحبها مما أوجب قيامهم بالتشنيع والافتراء حتى اضمحل أمرهم، وتوفي النيلي بعد وقتٍ قصير، وقد طُبع الرد في كتيب مستقل.

بقية الله في الأرضين الحجة صاحب الزمان عليه وعلى آبائه أفضل الصلاة والسلام.

سماحة الشيخ العميد محمد اليعقوبي (دامت بركاته).

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

شيخي الكريم، لا بدّ وأن الحوزة المشرفة قد سمعت بموضوع الكاتب عالم سبيط النيلي ومؤلفاته المطروحة للساحة الآن، والظاهر ومع الأسف الشديد أن مؤلفاته لم تلق من الاهتمام – من قبل الحوزة - ما يجب، على أن مؤلفاته وأفكاره الجديدة والتي يطرحها قد أخذت بعداً واسعاً جداً في أوساط المجتمع الإسلامي، حتى أصبح له الآن مؤيدون كثيرون جداً في أفكاره، وأن بعض الأفراد قد أخذوا بتطبيق أو محاولة تطبيق أفكاره على ما في هذا الأصل من خطورة شديدة (إذ يقول إن المنهج الذي أطرحه يتكون من أربعة خطوط متوازية تبدأ:

١- اللغة الموحدة بأجزائه.

٢- الحل القصدي.

٣- الحل الفلسفي.

٤- النظام القرآني.

وبما أن أمر هذا المنهج الجديد قد أصبح يشكل مسألة مهمة وشغلاً للأذهان وحيرة للكثير من أفراد المجتمع، والذين تتحمل الحوزة الشريفة المسؤولية الكاملة في توجيههم، فإن هؤلاء يمثلون فئة أو قسماً لا يستهان به من الطبقة الواعية في مجتمعنا، ومع ذلك حدث أن قام بعضهم بترك التقليد والعمل وفق المنهج الجديد والمطروح في كتب عالم سبيط النيلي، وبما اقتنعوا هم به من الأمور الصحيحة لديهم، وقد أخذت عليهم في ذلك مأخذاً واحداً وهو أنهم وإن اقتنعوا بأفكار سبيط النيلي ومنهجه الجديد، فإنهم تصرفوا قبل استشارة الحوزة وقبل أن يصدر من الحوزة المقدسة القول الفصل بشأن هذا الموضوع.

شيخي الكريم: إن ديني ودين ثلة طيبة من الشباب المؤمن أمانة في عنقك أنت، فنرجو ألاّ تدخر وسعاً في دراسة هذه الكتب، وإعطائنا الرد الشافي المدعم بالأدلة والبراهين لتطمئن قلوبنا وتهدأ نفوسنا؛ فإننا نعيش حالة لا تسرّ الصديق في الإرباك العقائدي والديني من جرّاء ما نواجهه من تيار لا نعلم أين الحق فيه وأين الباطل.. ونحن نرفع إلى الحوزة السؤال عن هذا الكاتب وعن كتبه وأفكاره الجديدة، نرجوها أن تأخذ بعين الاعتبار الأهمية التي تمثلها هذه الكتب بالنسبة للمجتمع، وإعطاء الإجابة الشافية لصدور المهتمين بهذا الأمر الساعين لطلب الحق.

ومن المؤكد أن هذا الأمر سيمثل تمحيصاً جديداً للمجتمع الإسلامي، فندعو الله عزّ وجلّ أن يهدينا وينير بصيرتنا للحق، إنه على كل شيء قدير، هو مولانا ونعم النصير.

إحسان الشديدي وعمار الظالمي.

بسمه تعالى

الحمد لله كما هو أهله، والصلاة والسلام على خير خلقه محمد وآله الطيبين الطاهرين.

إن ما تفضلت به من مسؤولية الحوزة الشريفة عن حماية المجتمع من الانحراف وتحصينه ضد الشبهات والفتن المضلة صحيح جداً، فهم ورثة الأنبياء بكل ما تعني الوراثة من مسؤوليات، وهم الحجج المنصوبة على الخلق من قبل المعصومين (عليهم السلام) في زمان الغيبة بالنصوص الشريفة، ومنها قول الإمام الصادق (عليه السلام): (فإنهم – أي العلماء - حجتي عليكم، وأنا حجة الله)، وقد كان الأئمة (عليهم السلام) بالمرصاد لكل شبهة يمكن أن تزلزل عقيدة المسلم أو تدفعه نحو الانحراف، بل إن قضية الإمام الحسن العسكري (عليه السلام) مع الفيلسوف يعقوب بن إسحاق الكندي[1] تبين أنهم (عليهم

---

(١) علم الإمام الحسن العسكري (عليه السلام) أن الفيلسوف يعقوب بن إسحاق أخذ في التأليف في متناقضات القرآن وشغل نفسه بذلك فقال لطلابه وبعض أصحابه موبخاً: ألا يتصدى أحد منكم للرد على هذا الرجل؟ فاعتذروا لعدم قدرتهم على مجاراته فقال (عليه السلام): أنا أعلمكم الوسيلة إلى ذلك وانبرى أحدهم لتنفيذها فقال (عليه السلام): تلتحق بطلبته وتقوم بخدمته وملازمته وتتودد إليه حتى إذا استأنس بك وبدا يعرض عليك كتبه وأفكاره فإذا عرض عليك ما توهمه من متناقضات القرآن فقل له: ألا يحتمل أن المراد بالآية غير ما فهمت منها فتوهمت التناقض وفق ما فهمت أنت لا وفق ما أراد المتكلم وأمله الإمام (عليه السلام) بنجاح خطته لأن الكندي كما وصفه الإمام (عليه السلام) (يفهم إذا سمع) وفعل التلميذ ذلك بالضبط ففكر الكندي مع نفسه ورأى أن ذلك ممكن جداً فقال: أقسمت عليك إلا أخبرتني من أين لك فقال: إنه شيء عرض بقلبي فأوردته عليك. فقال: كلا، ما مثلك من يهتدي إلى هذا ولا ممن بلغ هذه المنزلة، فأخبرني من أين لك هذا، فقال: أخبرني به أبو محمد الحسن (عليه السلام) فقال: الآن==

السلام) كانوا يتصدون للأفكار المريضة قبل خروجها إلى المجتمع ليقضوا عليها وهي في المهد.

وفي الحديث: أن أشد من يتيم الأبوين يتيم انقطع عن إمامه لا يقدر على الوصول إليه، ولا يدري كيف حكمه فيما يبتلى به من شرائع دينه، فمن هداه وأرشده وعلّمه شريعتنا كان معنا في الرفيق الأعلى.

من هنا كان أرقى مصداق لمفهوم (المرابطين) هم العلماء؛ لأنهم مرابطون فعلاً في الثغور والحدود التي تفصل بين نفس الإنسان وعقله، والتي يريد إبليس أن يخترقها ليعبر من النفس الأمّارة بالسوء إلى عقل الإنسان وفطرته السليمة وقلبه النقي، فيسودها ويحرفها، فيقوم العلماء بالتصدي ومنع جند الشيطان من تجاوز هذه الحدود واختراقها ويسلّحون عقل المسلم وقلبه بما يعينه على المقاومة ضد هذا العدو اللعين وجنده، فهم – أي العلماء - أفضل من المجاهدين في ثغور وحدود بلاد المسلمين.

وفي الحديث أنه: لولا من يبقى بعد غيبة قائمنا من العلماء الداعين إليه والدالين عليه والذابين عن دينه بحجج الله تعالى والمنقذين لضعفاء عباد الله من شباك إبليس – لعنه الله – ومردته، ومن فخاخ النواصب، لما بقي أحد إلاّ ارتد عن دين الله تعالى، ولكنهم الذين يمسكون أزمة قلوب ضعفاء الشيعة، أولئك هم الأفضلون عند الله عز وجل.

هؤلاء العلماء هم المعنيون بالأحاديث الشريفة والموصوفون بأنهم (أمناء الرسل)، و(حصون الإسلام)، و(ورثة الأنبياء)، وإنه (ليستغفر له ما في

==جئت به وما كان ليخرج مثل هذا إلا من ذلك البيت، ثم إنه دعا بالنار وأحرق ما كان ألّفه. (تأريخ الغيبة الصغرى/١٩٥ نقلاً عن مناقب آل أبي طالب:٥٢٦/٣).

أقول: الرواية مرسلة أي لم يذكر لها سند فلا يمكن الاستناد إليها في معرفة عقيدة الكندي.

السماوات وما في الأرض)، وأن (العالم أفضل من العابد، لأن الشيطان يضع البدعة للناس فيبصرها العالم فيزيلها، والعابد مقبل على عبادته).

وفي مقابل هذه المسؤولية الملقاة على عاتق العلماء توجد مسؤولية تتحملها الأمة بأن تلتف حول علمائها ومراجعتهم في كل صغيرة وكبيرة ولا يفعلون شيئاً ولا يقدمون رجلاً ولا يؤخرون إلا بعد أخذ رأيهم، وإلا ضلوا. وقد مرّ عليكم الآن كيف أن الإمام (عليه السلام) جعلهم حجته على الناس، والحجة واجبة الإتباع، وفي الدعاء: (اللهم عرّفني حجتك، فإنّك إن لم تعرّفني حجتك ضللتُ عن ديني)، وأمروا شيعتهم بملازمة العلماء ومزاحمتهم بالركب، وجعلوا (عليهم السلام) النظر إلى وجه العالم عبادة، وأمروا بالتفقه في الدين وحثوا عليه لئلا تعود الأمة أعراباً جهلة، وفي الحديث ما مضمونه: (ليت السياط على رؤوس أصحابي حتى يتفقهوا في الدين)، وفي آخر (أفٍ لرجل لا يفرغ نفسه ولو كل جمعة ساعة ليتفقه في الدين)، والفقه هنا لا يختص بمعرفة الأحكام الشرعية، بل كل ما يقرب إلى الله سبحانه ويزيد من طاعته، والأحاديث التي تبين فضل العلم ومنزلة طالبيه وعظيم أجرهم وكرامتهم عند الله سبحانه مما لا يستوعبه هذا الكلام المختصر.

أقول قولي هذا ولعلّه ليس جديداً عليكم لأخلص إلى أمرين:

١- إن هذه المسؤولية المتبادلة وهذه التركيبة المنتظمة التي حفظت الدين منذ ألف وأربعمائة عام وأوصلته لنا غضاً طرياً كأنه نزل اليوم بفضل جهود وجهاد المخلصين من أبناء الإسلام وعلى رأسهم الأئمة المعصومين، يريد هذا الرجل المدعو (عالم) أن يشطب عليها بجرّة قلم ويلغي المرجعية والتقليد ودور العلماء في حياة الأئمة، ويدعوهم إلى الاكتفاء باتباع نظريته في اللغة الموحدة لفهم النصوص الشرعية وأخذ الأحكام من مصادر التشريع، وما هي إلا أوهام تراءت له فأخذها بلا تمحيص، فصوّر له خياله المغرور أنه أتى بأعظم إنجاز فكري شهدته البشرية – كما يقول في مقدمة كتابه – بحيث لم يستطع الأنبياء ولا

الأئمة ولا علماء الأولين والآخرين، بل ولا الرسالات السماوية أن تأتي بمثله؟! أي سخف من القول هذا؟! وأي خدمة يقدمها على طبق من ذهب - كما يمثلون- إلى أعداء الله وأعداء رسوله (صلى الله عليه وآله) وأعداء الأمة؟! الذين كل همهم أن يهدموا هذا الكيان المتين وتنفصم هذه العروة الوثقى.

أليس من سيرة العقلاء – إن كان هذا الرجل منهم - أنهم يرجعون في كل مجال إلى ذوي الاختصاص فيه، فالمريض يراجع الطبيب لا المهندس مثلاً.. وهكذا، والفقه كأحد العلوم خاضع لهذه السيرة، فلماذا يلي دور الفقهاء من أساس دون غيره من المجالات؟! فالتفتوا إلى ما يريد هذا الرجل.

٢- إن هؤلاء الذين تقول عنهم أنهم اقتنعوا بالمنهج الجديد الذي طرحه النيلي هم إما من أنصاف المثقفين الذين تستهويهم فكرة غير ممحصّة فينطلقون بها بكل حماس ويرفضون كل ما عند الآخرين، والجاهل هو الذي لا يفكّر بعقله بشكل سليم وإن حمل أعلى الشهادات، فكم من بروفيسور في أرقى العلوم العصرية وهو يعبد البقرة أو النار أو بوذا ونحوه.

فماذا أعطاهم النيلي؟ وبماذا أبدلهم؟! هل يستطيعون معرفة شيء وفق المنهج الجديد؟ كل ما فعله لهم هو الهدم من دون بديل، هدم كل أسسهم الرصينة ومبادئهم الحقة، واعداً إياهم بالفتح العظيم الذي سيحلّ لهم إغلاق كل خزائن العلوم، لكنه هو لم يستطيع أن يكتشف معاني الحروف جميعاً، بل ترك نصفها، ومنها حرف الألف الذي يقال عنه أكثر الحروف تكراراً في كلام العرب، فكيف سيفهم (عالم) ومن تبعه (النظام القرآني) وغيره من الأسرار إذا لم يجد المفتاح لخزائنها؟! فأين ذهبت ثقافتهم المزعومة وهم يجرون وراء هذا الوهم والسراب الكاذب؟! وأين غابت عنهم هذه التعاليم الشريفة الصادرة من أهل بيت العصمة في حق العلماء ووجوب اتباعهم حتى صفقوا وراء هذا الرجل واستهزؤوا بالعلماء المخلصين وأولياء الله الصالحين؟

ألا يكفي هذا الضياع الذي أوصلهم له دليلاً على سخف وتفاهة[1] ما جاء به من نظرية اللغة الموحدة؟! إنه الجهل يا عزيزي وفراغ الفكر، والفارغ هو الذي يكون مستعداً لملئه بكل شيء مهما كان تافهاً وباطلاً، وإذا أردنا أن نعالج هذه المشكلة وغيرها فلا ينبغي أن نتعب أنفسنا كثيراً في معالجة الجزئيات، وإنما يجب بذل الوسع وإفراغ الهمة في توعية الأمة والارتقاء بمستواها الفكري، حتى لا تنطلي عليها الفتن والضلالات الهشة، والتي لا تصمد أمام الدليل، بعد التوكل على الله سبحانه والاعتصام بحبله المتين وعروته الوثقى التي لا انفصام لها: كتاب الله وسيرة رسول (صلى الله عليه وآله وسلم) والأئمة الطاهرين من آله.

إن الذي يقرأ كتب هذا الرجل لا يلبث أن يكتشف عدة سلبيات في شخصه:

١- جهله بما يقوله الآخرون بأفكارهم، وذلك ناشئ من إقحام نفسه في ما لا يعلم، خصوصاً في كتابه الذي يردّ به - كما زعم - على الأصوليين وعلمهم الذي هو عنوان فخر الحوزة الشريفة.

٢- تناقض كلامه حيث يضرب بعضه بعضاً.

٣-عدم الأمانة العلمية، فينسب أفكار غيره لنفسه، أو ينسب لهم ما لم يقولوه، ومن مصاديق ذلك عدم الدقة في النقل والتحريف فيه والتبديل عن علم وعمد، ليمرّر أفكاره، مستفيداً من عدم الدقة في المصادر المذكورة أو عدم وجودها أصلاً، والظن بعدم مراجعة أغلب القراء وراءه.

٤- توسّله بالعبارات المبهمة والغامضة التي لا محصل وراءها ولا يعرف هو معناها.

---

(١) ليس من دأب العلماء القسوة في النقد إلا عندما يكون علاجاً لغرور الآخر لكي يصحو من سكرته.

٥- الغرور المتمثل بادعائه دعاوى كبيرة كنسبة جميع الخلافات والنزاعات بين البشر إلى الجهل بنظريته، لا الشهوات والمطامع والأهواء وغيرها، وأن نظريته أرقى ما توصل إليه العقل البشري إلى اليوم، ناسياً أو متناسياً أنها قديمة منذ أزيد من ألف عام، وتوجد أطروحات أكمل وأنضج من أطروحته للغة الموحدّة.

٦- الشعور بالنقص أو ما يسمّونه (عقدة الحقارة) تجاه الحوزة الشريفة والمرجعية، مما دفعه إلى توجيه معاول الهدم إلى (المؤسسة الدينية) كما يعبر، رغم أن المفروض بنظريته أنها تقتحم كل العلوم.

وإني أذكر هذه النقاط من دون أمثلة وشواهد من كلامه رعاية للاختصار، محيلاً التفصيل إلى بعض الكتب التي وجّهت بتأليفها للرد عليه.

لكني أريد – بتوفيق الله سبحانه - أن أطرح بعض النقوض على نظرية اللغة الموحدة التي تعتبر أساس أفكاره وكتبه الأخرى، وإن ادعى-كما ينقل السائل- أن المنهج الذي يطرحه يكون من أربعة خطوط متوازية، ويظن بذلك أنه يسحب البساط من تحت من يردّ على نظريته المزعومة، فإنه يعلم سلفاً فشلها، وإذا اعترف أنها أساس أطروحاته الأخرى فسوف يخرّ كل بنائه، لكن الكذب حبله قصير، فتراه يعترف في نفس كتاب اللغة الموحدّة (إن الحل القصدي للغة سيكون البديل للاعتباط اللغوي برمته نحواً وصرفاً وبلاغةً ونقداً وتفسيراً وفكراً وفقهاً وأصولاً وعلوماً أخرى متفرعة عن هذا العلم).

١- إننا لا نقول بأن اللغة اعتباطية، فلا يجوز له أن يوجه هجومه إلينا، بل إلى (دي سوسير) وأمثاله من الغربيين القائلين بمبدأ الاعتباط، أما نحن فنقول بأن العلاقة بين اللفظ والمعنى (اعتبارية)، أي أن الواضع يختار كلمة للدلالة على معنى، قاصداً لاعتبار وإنشاء هذه العلقة بينهما، أما لماذا اختار هذا اللفظ لربطه بهذا المعنى، فتختلف المناسبات لذلك، فبعضها العلاقة الطبيعية (كأسماء

أصوات الحيوانات والماء)، وأخرى نفسية (كالليونة والقوة)، وأخرى اعتبارية محضة أي بلا سبب واضح (كأسماء الحيوانات والبشر، فيسمى هذا كريماً وقد يكون بخيلاً، أو يسمى جميلاً وهو قبيح).

٢- الفرق الواضح بين (الاعتباط) الذي هاجمه النيلي و(الاعتبار)، فإن الاعتبار عملية قصدية من قبل الواضع المعتبر، بالضبط كوضع العلامات الحسابية، فهذه الإشارة للدلالة على الجمع، وتلك إشارة للدلالة على القسمة، وكالعلامات المرورية فهذه تدل على المنع من الوقوف وتلك على وجود خطر وهكذا، ولو أراد الواضع أن يعتبرها بالعكس لأمكنه ذلك.

٣- إذا كانت الحروف ذات معاني ثابتة في نفسها يمكن اكتشافها من القيم الصوتية للحروف بغض النظر عن اعتبار الواضع، فلماذا لم تفلح نظريته في اكتشاف معاني الكلمات التي أهمل الأوائل وضع معاني لها ككلمة (ديز) التي يمثلون بها دائماً للمعاني المهملة، وإني أتحدى المؤمنين بهذه النظرية أن يكتشفوا معنى هذه الكلمة بتطبيق نظرية اللغة الموحدة.

٤- إننا لا ننكر وجود قيم صوتية متباينة للحروف، باعتبار أن مخارجها مختلفة من ناحية فسيولوجية، فتكون شدتها الصوتية متفاوتة، لكن ذلك لا يعني دلالتها على معاني معينة؛ إذ يستطيع كل شخص وأبناء كل لغة أن يوظفوا هذه القيمة لمعنى معين، بل لا بدّ من اختلاف القيم الصوتية للتمييز بين الكلمات والحروف.

٥- إن نظريته مبنية على استقراء ناقص وبأسوأ صورة، حيث إن الكلمات لا متناهية، بينما هو طبق نظريته أو قل اكتشفها ـ بزعمه - من أعمال النظر في كلمة أو كلمتين وما أسرع ما تنقض نظريته في الكلمة الثالثة.

٦- إنه في الوقت الذي هاجم العلماء السابقين وفي جميع حقول المعرفة ووصفهم كلهم بالجهلة، لأنهم لم يعرفوا نظريته إلاّ إنه لم يخرج عن دائرتهم، فإنه يأخذ الكلمات من المعاجم العربية الموجودة ثم يستنبط منها نظريته، فيكون

قد أخذ مسبقاً معاني الكلمات وسلم بصحتها وطبق نظريته عليها، فأعتمد على المعاجم لإثبات صحة نظريته، ثم أنكر المعاجم ففند بذلك أساس نظريته، ولو كان تفكيره صحيحاً لنظر في الحروف واستنبط معانيها متجرداً عن أية معلومات مسبقة.

٧- لو أمعنت النظر في كتابه لوجدت أن غاية ما فعله هو إرجاع معاني المفردات ذات الأصل الواحد إلى أصلها، ثم بين وجه تفرع هذه المعاني عن الأصل، وهذا جهد قام به علماء كثيرون، ومنهم الراغب الأصفهاني في المفردات والخليل بن أحمد في كتاب العين، وابن فارس في معجم مقاييس اللغة الذي أعطى معاني الجذور ذي الحرفين، ثم ذي الثلاثة أحرف. أما من أين عرف معنى هذا الأصل فليس من نظريته، وإنما من الكتب الأصلية في هذا المجال كالكتاب المذكور.

٨- إننا لو سلمنا بصحة نظريته فهذا لا يوجب الهجوم على العلماء السابقين ولا يعني إلغاء جهودهم أو عدم صحتها، فإنهم فهموا معاني الكلمات من دون التفات إلى القانون أو النظرية التي تنظم العلاقة بين اللفظ والمعنى، وهذا ممكن؛ كالشعراء الذين نظموا أرقى فنون الشعر وهم غير ملتفتين إلى القواعد العروضية التي تنبّه لها الفراهيدي بعد ذلك بقرون وقنن أصولها، ولم يقل أن شعر السابقين باطل وهراء لأنهم لم يلتفتوا إلى قوانينه فاعتبروا يا أوليي الأبصار.

٩- إن نظرية هذا النيلي لو تمت فإنها لا تحلّ الخلافات والنزاعات بين الأمم كما يبشر بها هذا المسكين، لأن منشأ هذا الخلاف ليس هو اللغة، وإنما النفس الأمارة بالسوء والشيطان اللذان يستعملان مختلف الأدوات لإضلال الناس، ومنها التلاعب بمعاني الالفاظ، والذي فعله النيلي أنه حول محور النزاع إلى جهة أخرى وهي معاني الحروف من خلال القيم الصوتية لها، فالعين عنده تدل على (اتضاح معالم الحركة المبهمة)، وعند الشيخ العلايلي الذي له محاولة

أنضج وأكمل وأعقل من أطروحته لنظرية اللغة الموحدة تدل على (خلو الباطن أو الخلو المطلق)، وهكذا كلٌ يقول ما يشتهي وبحسب الكلمات التي يضعها أمامه ليستقرأ معنى الحرف، والخلاصة إن إحالة اختلاف المعاني باختلاف الألفاظ على القيم الصوتية إحالة على أمر مجهول، وما الفرق بين (الاعتباط) و(الجهالة)، فأصبح كالمستجير من الرمضاء بالنار، وأتحدى أي واحد ممن حوله ويؤيدون نظريته أن يستنتج معنى معيناً للفظ نظريته فبماذا يفسر اختلاف كلمات (بِر،بَر،بُر) بالمعنى؟ وهل إن الإجابة باختلاف قيمها الصوتية كافٍ لفهم اختلاف معانيها من دون معرفة أوضاعها اللغوية؟.

١٠- إن الكلمات التي تشترك في الحرف الأول كيف تختلف دلالاتها على المعاني، لأنها غير متطابقة بالمعنى أكيداً؟

إن قلتَ: بحسب الحرف الذي يتعقبها.

قلتُ: فإن تطابقت فيه ستقول إنها تتباين بحسب الحرف الذي يليه وعندئذ:

أ- إن إحالة الأمر على التعاقب يلزم منه إعطاء التأثير لأمر خارج عن القيم الصوتية للحروف بنطقها، وهو عين ما نعنيه بالاعتبار الذي يتكفله الواضع ولم ينشأ من ذات الحروف.

ب-يلزم أن يضع قائمة ليس لمعاني الحروف الثمانية والعشرين فقط، وإنما لتعاقبات كل حرف في المرتبة الثانية، ثم لتعاقبات الحرف الثالث، وهكذا. فسيدخل في متاهة لم يستطع أن يكمل المرتبة الأولى منها.

١١- إن غاية ما تفيده هذه النظرية معاني الحروف الأصلية، أي ما يسمى بالمادة، وهي مثلاً الضاد والراء والباء في (ضرب)، فكيف تُفهم معاني مشتقاتها؟ فيُفهم من ضَرَبَ دلالته على الزمان الماضي، ومن (ضارب) وجود ذات فاعله، ومن (مضروب) وجود ذات منفعلة، ومن (ضَرْب) المعنى الحدثي، وكذا المشتقات الأخرى.

١٢- إن نظريته إنما تفسر معاني الكلمات في أنفسها، أي المفردات بغض النظر عن دخولها في سياقات كلامية، فكيف يفسّر لنا معاني الهيئات الجملية كالحصر المستفاد من تقديم ما حقّه التأخير في مثل قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ (الفاتحة:٥)، أو الإسناد والحمل في مثل المبتدأ والخبر أو الاختصاص، وكذا مفهوم المخالفة فنفهم من جملة (إذا جاءك زيد فأكرمه) أنه إذا لم يجيء زيد فلا تكرمه، وكذا سائر الدلالات الالتزامية.

١٣- إن كثيراً من وسائل نقل المعاني ليس فيها أصوات، وهي تؤدي وظيفتها في إفادة المعنى، رغم أنه ليس فيها قيم صوتية، كالعلامات المرورية والإشارات الحسابية، وتفسيرها واضح على نظرية الاعتبار كما ذكرنا سابقاً، حيث أن ربطها بالمعاني بعملية قصدية من قبل الواضع، وهو الذي يطرح للآخرين قانون الاعتبار ويطبقه الآخرون.

١٤-إن نظريته مبنية على كون العلاقة بين اللفظ والمعنى ذاتية، أي أن صدور اللفظ علة لحضور المعنى في الذهن، وإن لم يكن السامع يعلم بمعنى هذا اللفظ أو يسمع به من قبل، وهذه النظرية مطروحة سابقاً، وقد ردّها الأصوليون بكلمتين لوضوح بطلانها، فقالوا إنها لو كانت ذاتية لفهم الأعجمي اللغة العربية والعربي اللغات الأعجمية كما يفهم الجميع من رؤية الدخان وجود نار، ولما احتجنا لمعاجم وقواميس لمعرفة معاني الكلمات ما دام أن أصواتها تدل على المعاني ذاتاً، ويكذبها نفس صاحب النظرية، لأنه يرجع إلى القواميس لمعرفة معاني الكلمات التي يعرفها، ويكذبها الوجدان إذ لو طرحت كلمات غريبة على عينات عشوائية من الناس وطلبت منهم أن يشرحوا ما يفهمون منها لما توصلوا إلى شيء إلا إذا كان منشأ اعتبارها لدى الواضع هو الطبع كما تقدم ذكره.

١٥- كيف نفسر وفق نظريته الترادف، وهو وجود كلمات متعددة لها معنى واحد، والاشتراك، وهو وجود معاني متعددة لكلمة واحدة، أو ما يسمى

في البلاغة بالطباق والجناس وهي حالات موجودة كثيراً في لغتنا، وإذا أجاب بنفي وجودها فإن إنكارها كإنكار الأمر البديهي.

١٦- بماذا يفسر المجاز في الكلمة كقوله تعالى: ﴿إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْراً﴾ (يوسف:٣٦) أي عنباً، سمي خمراً بعلاقة الأَوْل والمشارفة حيث أنه يؤول إليه؟ والمجاز في الإسناد كقولنا: (جرى الميزاب) أي الماء الذي في الميزاب؟ والكناية فنفهم من قولنا (زيد كثير الرماد) أي كريم، لأن معنى كثرة الرماد كثرة الطبخ الذي يعني كثرة الضيوف، فهذه كلها معاني تفهم خارج أصوات الحروف، فكيف تستوعبها نظرية (عالم)؟!

١٧- توجد أحاديث على أن للقرآن سبعين بطناً من المعاني، وقد نهى علي (عليه السلام) ابن عباس عن الاحتجاج بالقرآن لأنه - على تعبيره (عليه السلام) - حمال ذو وجوه، فكيف تحصرها اللغة الموحدة في واحد؟ وكيف اهتدى النيلي إلى (النظام القرآني) في حين أن نظريته لو تمّت فإنها تعطي معنى واحداً فقط.

١٨- إن النظرية لا تفرّق بين ما سماه الأصوليون المراد الاستعمالي والمراد الجدي، ويعنون بالأول المعاني المتبادرة من نفس الألفاظ بغض النظر عن كونها مرادة للمتكلم أم لا، ويعنون بالثاني المراد الحقيقي للمتكلم والذي قد يكون مطابقاً للأول أو غير مطابق، وإنما يفهم من خارج الكلمات بحسب التواضع والاعتبار الذي جرى عليه أبناء اللغة، ومن ذلك دلالة الإشارة فتقول لمن تريد إيقاظه لصلاة الصبح: (طلعت الشمس) أي انتهى وقت الصلاة، وقد تكون الدلالة المطابقية أي المراد الاستعمالي كاذباً ومع ذلك يكون المراد الجدي صحيحاً، فنقول: إن جون مولى أبي ذر (وجهه أبيض) رغم أن لون وجهه أسود، لكن المعنى المراد صادق باعتبار جميل صنعه وحسن موقفه في نصرة الإمام الحسين (عليه السلام).

والنظرية إن صحت فإنما تعطي المراد الأول، ولا تتكفل بالثاني، فكيف تغني عن جميع العلوم من بلاغة وتفسير وأصول ونحو وغيرها؟! والذي يزيد الطين بلة أنه ورد في الحديث الشريف: أن القرآن نزل بصيغة (إياكِ أعني واسمعي يا جارة) أي أن المراد الجدي فيه مختفٍ وراء المراد الاستعمالي، ويؤكد القرآن ذلك كثيراً، حيث عبّر عن هذه الألفاظ بأنها أمثال لتقريب الحقائق والمعاني الواقعية للقرآن: ﴿وَيَضْرِبُ اللّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ (إبراهيم:٢٥)، وفي الحديث الشريف: (لا يكون الرجل منكم فقيهاً حتى يعرف معاريض كلامنا)، أي المعاني التي هي وراء المعاني المتبادرة من الألفاظ التي يريد (عالم) أن يكتشفها بنظريته، فكيف سيحل أسرار القرآن ويفهم نظامه.

١٩- إن المعاني التي أعطاها للحروف محدودة، بينما المعاني متكثرة ولا حصر لها، فكيف يمكن للمحدود أن يستوعب اللا محدود بينما عملية الوضع عند القائل بالاعتبار مفتوحة ويستطيع الواضع أن يربط بين أي عدد من الحروف ووفق أي ترتيب ويضعه لمعنى معين.

٢٠- إنه بنظريته جعل دلالة الألفاظ على المعاني (اعتباطية)؛ لأن المسألة عنده ميكانيكية، فهذا اللفظ يجب أن يدلّ على هذا المعنى سواء قصده المتكلم أم لا، فتكون العملية خارجة عن إرادة وقصد المتكلم، وستنشأ فوضى في تبادل الأفكار، فالمتكلم يقصد شيئاً والمخاطب يفهم - وفق نظرية اللغة الموحدة - شيئاً آخر، وإن نظريته قهرية تفرض المعاني على الواضع بينما نحن نعلم أن عملية الوضع اختيارية، إذ ينقدح عندنا معنى معين أو فكرة معينة، فنعبر عنها بما نشاء من الألفاظ ولا نقهر عليها.

٢١- إن جعل دلالة اللفظ على المعنى ميكانيكية فسيولوجية تضييق لأفق اللغة الرحيب ولوي عنقها داخل قمقم - كما يشبهون - بينما هي ذوقية ذات قيمة جمالية تستوعب كل المعاني خصوصاً اللغة العربية التي اختارها الله تبارك

وتعالى لتكون وعاءً لمعاني القرآن اللانهائية، أما هذه النظرية فتجعل معانيها محدودة ضمن القيم الصوتية للحرف فقط وهي محدودة.

٢٢- إن بعض الحروف موجودة في لغة وغير موجودة في أخرى، ففي العربية (ض، ظ، ق) وفي الانكليزية (H.V.G.P) وهنا أكثر من إشكال:

أ- إذا كانت لغة البشر موحدة، فلماذا لم تشترك جميعها في الحروف؟.

ب-إذا كان لكل حرف معنى محدد لا يؤديه غيره، فلماذا لم يترك غياب بعض الحروف في لغة ما فراغاً في تلك اللغة؟.

٢٣- إن القرآن الكريم يثبت وجود لغات متعددة، وقد امتن الله تبارك وتعالى على عباده بهذه النعمة فقال عز من قائل ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ﴾ (الروم:٢٢).

٢٤- إن للغات قيمة اجتماعية بحسب ما تؤديه من وظيفة التفاهم ونقل المعاني والأفكار وتنتج من هذه فكرتان:

الأولى: إن لغتنا قد قامت بهذه الوظيفة وتقوم بها على أحسن أداء من دون الحاجة إلى أفكار عالم سبيط، وما دامت قد أدّت وظيفتها في المجتمع وتعامل معها أهلها على هذا الأساس فكيف يأتي هذا الرجل ويصفهم جميعاً بأنهم مخطئون؟ وما معنى الخطأ عندئذٍ ما دامت قد أدّت الغرض التي وضعت من أجله وهو كونها وسيلة لنقل المعاني والأفكار؟.

الثانية: عدم القيمة لنظرية اللغة الموحدة لعدم استطاعة أي أحد – بما فيهم عالم نفسه - أن يستفيد منها، أما ما طرحه من تقريب معاني بعض الكلمات فهو إما مأخوذ من المعاجم أو هو من الضحك على الذقون كما يقولون.

٢٥- إذا كانت نظريته تغني عن العلوم فلماذا لم تعوضه عن أوضح علوم اللغة وهو النحو والإملاء؟ فجاءت كتاباته مليئة بالأخطاء النحوية

والإملائية المغايرة لما ورد في القرآن الكريم وكلام العرب، فلم يستطع أن يستفيد من نظريته في تقويم لسانه وكتابته.

٢٦- يمكن اختبار صحة النظرية بأخذ عينات عشوائية من المؤمنين بصحتها وإلقاء كلمات غريبة عليهم ومطالبتهم بمعرفة المعاني من الأصوات، وستجد بنفسك حينئذ مدى صدق النظرية وقدرتها على الربط بين اللفظ والمعنى. وستكون المصيبة أعظم لو أخذت عينات من عامة أبناء اللغة الذين نفترض التفاتهم مباشرة إلى أي معنى لو كانت العلاقة ذاتية ولتوصل إليها الشخص بلا تعليم.

٢٧- ويكذبها الوجدان فإننا نحس من أنفسنا وجداناً أننا قادرون على إنشاء لغة جديدة وابتكار ألفاظ لمعاني سواء على الصعيد المحلي أو القبلي، وأحياناً عند الصبيان الذين يبتكرون أصواتاً وكلمات للتعبير عن مراداتهم، وتؤدي وظيفتها من التفهم والتفهيم من دون الالتفات إلى هذه النظرية، فماذا نريد من اللغة أزيد من ذلك؟.

٢٨- إن الألفاظ وإن ارتبطت بمعانٍ إلا أن وراء اللغة فكراً وعلوماً غير معاني الألفاظ، فإذا أفلحت النظرية في اكتشاف معاني الألفاظ فكيف ستهتدي إلى أسرار العلوم حتى تكون بديلاً عنها؟ فلو أمسكت بكتاب طبي أو هندسي أو فيزيائي باللغة العربية فإنك تعرف الكلمات ومعانيها لكنك لا تفهم العلم والفكر الذي تحمله إن لم تكن من أهل الاختصاص واللغة، إنما هي مجرد وعاء لتلك الأفكار ووسيلة لنقلها، فكيف يدعي هذا البائس إغناء نظريته عن تلك العلوم. وهو وإن ركز هجومه على علماء الإسلام وعلومهم لحاجة في نفس يعقوب إلا أن المفروض تحدي نظريته لكل العلوم إذ لا خصوصية لبعضها عن بعض.

٢٩- إن فيها إغفالاً لعناصر أخرى تفيد المعنى غير الصوت كالكتابة، فيمكن أن نستفيد معاني كثيرة من خلال الكلمة المقروءة حتى لمن يفقد حاسة

السمع كما أننا – وصاحب النظرية – نتعلم معاني كثيرة لكلمات من خلال قراءة المعاجم من دون الحاجة إلى الأصوات.

٣٠- إنه لو كان فهم معاني اللغة متوقفاً على هذه النظرية فلماذا لم يبينها المعصومون (عليهم السلام) ما دامت اللغة هي الوسيلة لتبليغ الأحكام؟ فهل يعقل منهم (عليهم السلام) أن يضعوا شريعة الله سبحانه في خزينة ويرمون مفتاحها في البحر ولا يهتدي إليه إلا (عالم سبيط)، وكأن الشريعة نزلت إليه وحده، بل لم يستطيع هو الآخر أن يفك رموزها وهذه البشرية كلها ضالة منحرفة لم تعرف الحقيقة رغم أن الأئمة أقروهم على ما هم عليه واتبعوا نفس أساليبهم في إيصال خطاب الشارع المقدس.

٣١- توجد في اللغة كلمات ذات أصوات مشتركة تطلق على معاني متباينة وإن حاول (عالم) أن يرجعها إلى أصل واحد، فكيف تميز النظرية بين معانيها، وتوجد كلمات ذات قيمة صوتية مساوية لمجموع قيمتي جزئيها كلفظ (مُحسِنٌ) أي فاعل الإحسان المساوية لمجموع كلمتي (مُحْ) وهو جزء البيضة (وسِنْ) وهو العظم الموجود في الفم، فكيف تهتدي النظرية للتمييز بينها بحسب قيمة الأصوات؟ وكيف تغايرت معانيها وهي ذات صوت واحد؟ أو (كلّما) الظرفية المساوية لمجموع (كل) و (ما) التي هم اسم موصول، وهكذا.

٣٢- إن الدليل الذي استند إليه صاحب النظرية هو وجود تطابق بالمعاني واشتراك بالحروف بين كلمات اللغات المختلفة ليس تفسيره الوحيد هي نظرية اللغة الموحدة بل له تفسير آخر، وهو التزاوج بين اللغات، وعملية نقل المفردات في لغتين لا يعني محاولة إيجاد لغة موحدة للجميع وإجبارهم عليها واعتبار الألفاظ الأخرى خطأ.

وفي الختام أقول: هذه بعض النقوض التي ترد على نظرية اللغة الموحدة، وليس النيلي أول من اعتنقها بل هي سابقة عليه بأكثر من عشرة قرون، وممن

قال بها من المتأخرين الشيخ عبد الله العلايلي، وقد قدم أطروحة أنضج وأكمل من أطروحة النيلي ومع ذلك لم يبلغ به الغرور أن يقول إن نظريته هي أعظم ما قدمه العقل البشري على الإطلاق، كما إن الرجل كان مؤدباً مع السلف وجهود العلماء الكبار المضنية، ولم يتحامل عليهم بحقد كما فعل هذا الرجل، ولا أدري كيف خرج بكل هذه النتائج وهدم كل ذلك البناء من أجل فكرة محتملة لم تختمر في ذهنه ولم تكتمل بعد. ولا أدري ما الذي دفعه إلى هذه التجاوزات هل حبه للظهور؟ أم سعيه وراء الجاه والصيت وبريق العناوين الكبيرة؟ أم رواسب إلحادية وعداء للدين[1] بقي في أعماقه رغم ظاهره المتدين؟ أم حقده وحسده للحوزة العلمية الشريفة؟ أم جهله الذي أقحمه في المهالك وجعله يدعي ما ليس عنده؟ أم هؤلاء الضالون المضلون من شياطين الإنس الذين زينوا له فعله وصوروا له أفكاره وكأنها معجزة البشر الأولى.

قد يكون كل هذا أو بعضه أو غيره، لكن الأجود به لو كان ملتزماً بآداب العلم أن تبقى نظريته داخل الأروقة العلمية حتى تختبر صحتها ويعترف بها، من ثم يمكن ترتيب الآثار عليها.

وليس هو وحده الذي يتحمل تبعة من ضلوا بسببه، وإنما يتحمل الوزر كل من شجعه وآزره وسانده مادياً ومعنوياً من جهلة ومرتزقة وأعداء للدين رأوا في هذه الأفكار خير ما يحقق مآربهم، لأنه يضرب الدين باسم الدين وباسم القرآن وأهل البيت (عليهم السلام) فنجاحه مضمون. لكن خابت ظنونهم وخسرت صفقتهم بإذن الله تعالى ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ، مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ، سَيَصْلَى نَاراً ذَاتَ لَهَبٍ﴾ (المسد: ١-٣).

وينبغي الالتفات إلى أمور:

---

(١) مكث الرجل في الاتحاد السوفيتي مدة لدراسة هندسة الصواريخ.

١- إن هذه النقوض كتبتها بالمستوى المناسب لذهنية الذين اعتنقوا أفكار النيلي والتي هي غير معمقة بدليل تمريرها عليهم وايمانهم بصحتها، فلو وجد منهم من يفهم واستطاع الرد على هذه النقوض فإني سأرد عليهم بمستوى أعمق بإذن الله تعالى.

٢- إن هذه الأفكار مختصرة وعلى شكل رؤوس أقلام، وإن تفصيلها يحتاج إلى بسط في البيان ممكن للأخوة الفضلاء التصدي له بالشرح والتوضيح.

٣-إنني لم أذكر شواهد تفصيلية[1] على ما قلت، لأن المناقشة في الجزئيات تطول، وقد تضيّع المطلب.

---

(١) قام اثنان من طلبة الحوزة بإشراف سماحة الشيخ (دام ظله) بإصدار كرّاسين لبيان مثل هذه الشواهد والتناقضات في كلامه.